دراسات فى الأدب

للدكتور عبد الوهاب عزام

الشعر والنثر

قدمنا أن الأدب ينقسم إلى الأدب الإنشائى والأدب الوصفى . فالآن نبين أن الأدب الإنشائى ينقسم قسمين : شعراً ونثراً[1]

فالشعر أو القريض ، كلام موزون مقفى

الوزن أن يكون للكلام مقادير محدودة من الحركات والسكنات متتابعة على نسق خاص . فينشأ من هذا التتابع نغمة وتختل هذه النغمة إذا زادت الحركات والسكنات أو نقصت ، أو اختلف تاليفها .

والتقفية أن تكون أبيات القصيدة الواحدة متشابهة فى أواخرها ولا سيما الحرف الأخير . فى قول المتنبى :

لا شك فيها إذا أضيف ذلك اللون إلى ألوان الورود

ولكنه يجنى على الورد وعلى عالم النبات لا سواء إذا تمادى فى تجاربه حتى يزول الورد الأحمر والورد الأبيض والورد الذى يولد على ألوان مختلفات بغير تخليط وتهجين

وخير لبنى الإنسان أن يتعلموا التآلف وهم مختلفو العناصر متعددو المزايا جاسون بين فضائل العنصر القح والعنصر الهجين من أن يتآلفوا وهم لون واحد فقير المزايا قليل الاختلاف

على أننى أحمد هذا اللقاح وأتمنى لو يظفر الفكر الإنسانى بأنماط شتى من غير هذا القبيل كما ظفرنا بذلك النمط من ذلك القبيل

عباس محمود العقاد

وقفت وما فى الموت شك لواقف كأنك فى جفن الردى وهو نائم
تمر بك الأبطال كلمى هزيمة ووجهك وضاح وثغرك باسم

تجد البيتين على وزن واحد تتوالى الحركات والسكنات فيهما على نسق متفق وينتهيان بكلمتين متشابهتين فى الوزن وفى الحرف الأخير . وهما نائم وباسم . وسيأتى تفصيل هذا فى باب الشعر

أما النثر فكلام لا يلتزم فيه وزن ولا قافية

وتعريف الشعر والنثر بهذين التعريفين فيه نظر إلى الألفاظ لا إلى المعانى

وأما تعريفهما من جهة المعنى فالشعر كلام تنشئه عاطفة قوية أو خيال والنثر كلام مطلق يكون أحياناً مبنيًا على الفكر المرتب ، وأحياناً ناشئاً من العاطفة والخيال كالشعر . فالنثر من جهة المعنى أعم من الشعر

والتعريف المأثور عن أدباء العرب هو التعريف الأول — التعريف اللفظى

وقد نظر قدماء اليونان إلى معنى الشعر دون لفظه فقالوا إنه الكلام المبنى على الخيال المؤثر فى النفس بالترغيب أو التنفير[1]

والحق أن العرب حين نظروا إلى صورة الشعر فرفوه التعريف السابق لم يهملوا جانب المعنى فيعدّوا كل منظوم شعراً . بل كان الشعر عندهم من جهة معانيه كالشعر عند اليونان . قال قدامة فى نقد النثر : وإنما سُمّى شاعراً لأنه يشعر من معانى القول وإصابة الوصف بما لا يشعر به غيره . وإذا كان إنما يستحق اسم الشعر بما ذكرنا فكل من كان خارجاً عن هذا الوصف فليس بشاعر وإن أتى بكلام موزون مقفى[2]

وإنما نظروا إلى الجانب اللفظى لأنه الجانب المحسوس الواضح الذى لا يشارك الشعر فيه النثر . وربما كان أول من عرّف الشعر العربى رجال العروض الذين ينظرون إلى ألفاظ الشعر دون معانيه وكذلك اليونان حين عرفوا الشعر من جهة المعنى لم يكن

---

(١) يرى علماء الأدب واللغة أن الشعر مأخوذ من شعر بمعنى فطن ، أى كبر العرب هذا الضرب من الكلام فخصوه باسم الشعر وسموا قائله شاعراً ، وعدوه علماً فطناً يشعر ويعرفه

ويجوز أن يكون الشعر مأخوذاً من شعر بمعنى غنى . ويلوح هذا أن كلمة شعر فى العبرية معناها الغناء ، وأن العرب يقولون أنشد شعراً والانشاد رفع الصوت

والنثر مأخوذ من نثر الحب نثراً أو نثاراً إذا فرقه ولقد روى عن ابن مسعود وحذيفة فى قراءة القرآن : « هزاً كهز الشعر ونثراً كنثر الدقل » أى كما يتساقط الرطب اليابس من النخلة إذا هززت — فالمعنى الشعر نظما لتشبيها بالعقد المنظوم ونحوه معنى الكلام غير الموزون نثراً كما ينثر العقد

(١) ونجد فى الكتب العربية هذا التعريف بألفاظ مختلفة : عرف الجرجانى الشعر بأنه قياس مؤلف من المخيلات . والغرض منه انفعال النفس بالترغيب أو التنفير

وفى كتب المنطق : الشعر هو القياس المركب من مقدمات يحصل للنفس منها القبض والبسط

(٢) نقد النثر ص ٦٦

شعرهم خالياً من الوزن والقافية ولكنهم نظروا إلى ناحية دون أخرى

والشعر والنثر مشتركان فى قواعد البلاغة وقوانين الكلام وإن كان الشعر فى جملته أميل إلى المجازات والاستعارات من النثر . قال قدامة بن جعفر فى كتابه نقد النثر :

« وقد ذكرنا المعانى التى يصير بها الشعر حسناً وبالجودة موصوفاً ، والمعانى التى يصير بها قبيحاً مرذولاً . وقلنا إن الشعر كلام مؤلف ، فما حسن فيه فهو فى الكلام حسن ، وما قبح فيه فهو فى الكلام قبيح . فكل ما ذكرناه هناك من أوصاف حد الشعر فاستعمله فى الخطابة والترسل ، وكل ما قلناه عن معايبه فتجنبه هنا[1] » .

ولكن يختلف الفنان فيما يعالجان من الموضوعات وفى طريقة البيان إجمالاً . فالأصل فى الشعر أن يتناول الأمور التى هى أوغل فى العاطفة والخيال ، وأن يتأنق فى التصوير والتجوز . والأصل فى النثر أن يتناول الموضوعات الطويلة التى تحتاج إلى تفكير وتوضيح وأن يبين إبانة طبيعية ، وربما يشارك النثر الشعر فى موضوعاته فقد كتب الكتاب منذ القرن الرابع فى الفخر والهجاء والمدح والعتاب والغزل الخ وربما يشاركه فى عباراته وأساليبه كذلك .

ولكن يبقى بعد هذا أن الشعر والنثر فى أصلهما مختلفان فى الموضوع وطريقة البيان ، ولولا اختلاف الشعر والنثر فى الموضوع والتصوير لكان الكاتب المجيد شاعراً مجيداً إذا استطاع أن ينظم ، ولكان الشاعر المجيد أجود فى كتابته حين يتحلل من قيود النظم ، ولكن الإجادة فى الاثنين معاً لا تتفق لأكثر الناس . وقد سئل أبو اسحاق الصابى عن الفرق بين الكتابة والشعر فقال :

« إن طريق الإحسان فى منثور الكلام يخالف طريق الإحسان فى منظومه ؛ لأن الترسل هو ما وضح معناه وأعطاك سماعُه فى أول وهلة ما تضمنته ألفاظه ، وأفخم الشعر ما غمض فلم يعطك غرضه إلا بعد مماطلة » ثم علل الصابى قوله هذا بفسحة النثر وضيق النظم

وكلام الصابى ليس صحيحاً على هذه الصورة لأن الغموض لا يحسن فى النثر ولا فى الشعر وكأنه أراد أن يقول : إن الشعر

(١) نقد النثر ص ٨٣

من رسائل الأدباء

« . . . لم يتيسر لى قراءة كل كتبك . إنما الذى قرأته لك هو مقالات وقصص ومساجلات فى الصحف والمجلات ومع أن كل آرائك حرة وجريئة إلا أن رأياً واحداً هو الذى ملك شعورى وكيانى : (إن من ملك قلباً حراً ولساناً حراً فهو الذى يستطيع أن يسود العالم) . سيدى : إن قلبى لحار وإن لسانى لحر وبهاتين الوسيلتين ينظم أملى فى المستقبل . إنى أعشق الجمال وأحب الأدب الرفيع ولكنهم يريدوننى أن أكون معلماً بإحدى المدارس الأزامية . إن جو القرية يكاد يخنقنى . أريد أن أؤدى رسالتى فى الحياة ، وهى رسالة الكاتب الموهوب ، لا أن أعيش على هامش الحياة ! إنه ليسرنى أنى استطعت إسماعك صوتى . فإن رأيت يا سيدى أن هذه النواة أهل للحياة فتعهدها بالغرس والرى . لى من حسن الأمل فيك ما يجعلنى أطمئن إلى أنك لن ترمى برسالتى فى سلة المهملات . . . »

قبل كل شىء أحب أن أقول لصاحب هذه الرسالة أن يحسن ظنه بحياته . فلئن كان هنالك إنسان يعيش على هامش الحياة فهو أنا صاحب هذا البرج القصىّ . إن جو القرية لا يمكن أن يكون خانقاً لقلب الشاعر . وإن مهنة التعليم والعمل على تكوين نفوس نبيلة ، ونفخ روح الجمال فى نشء ساذج ، وإيقاظ عيون صغيرة على حسن الطبيعة ؛ كل هذا خلق فى ذاته . ولكننا لا نريد أن نرى الخلق إلا فى مقال يكتب ، ولا المجد إلا فى هراء ينشر . هنالك شعراء عظام ما فارقوا قراهم قط وما تركوا صناعاتهم الصغيرة قط . إن القلب الحار يسبغ الخير والجمال على ما حوله . ولو كان لصاحب هذه الرسالة قلب حار حقيقة لظهر لهذا أثر فى قريته ومدرسته أولاً ثم فى مادة نفسه ثانياً . فالقلب الحار يحتاج إلى وقود ليشع ولا يخمد وأيسر الوقود الكتب . وصاحب الرسالة لا يقرأ كتباً ولكنه يطالع مطالعات سطحية سريعة ناقصة . كم من الأعوام وكم من أكداس الكتب تلزم للقلب وقوداً حتى يقال إنه « قلب حار » !

توفيق الحكيم